القدرية والجبرية

المسؤولية

طبيعة فكرتها وكيفية تكونها في النفس

(٥)

ان التطور الاجتماعي العظيم على سلم النزعات الفردية الذي وصفناه في الجزء الماضي يرى مجسماً في تاريخ الانسانية . فالآلهة وانصاف الآلهة القدماء والانبياء من بعدهم والملوك والشعراء والفلاسفة هم الذين كانوا المحور الذي دارت عليه المدنيات المتعاقبة . ولم يأخذ واحد من هؤلاء اسماً في التاريخ كعامل من عوامل الرقي او التدهور الانساني الا بمقدار نزعاته الخاصة الخارجة على النظام الاجتماعي السائد يوم وجوده . بل ان تراجمهم لتدل على انهم جميعاً كانوا منظورين بعين الاستغراب من الرأي السائد لتفوقهم في القيام في وجه الوحدات الايمانية الموطدة الاركان في النفوس . ولكن الذي نلحظ الى جانب ذلك ان نزعات الافراد الذين كانوا عوامل في رقي الانسانية كانت نزعات تتفق مع قوانين حياة الاجتماع الطبيعية من حيث هي وبكلمة اخرى ان هؤلاء الافراد كانوا صيحة الجنس نحو الكمال . وان هذه النزعات على ما فيها من مصادمة الرأي السائد لم تكن الا خطوات ضيقة جداً وكانت جميعتهم مهيئة لها وانما يقف في وجهها الماضي الذي قدس وحداته الايمانية حتى صارت في نظر المجموع عقيدة لا يمكن ان تحول . اما الافراد الذين عملوا على تدرك الانسانية فكانت نزعاتهم ضد الاجتماع بل ضد الحياة — كانوا نذر الموت واعلام الدمار . كانوا افراداً ساعدتهم ظروف خاصة على الرجوع بالانسانية الى الوراء . ولكن الاجتماع اظهر القوة في كل الظروف التي حلت به فيها مثل هذه الكوارث فلم يدم في تدركه . ولهذا نرى استبداد ملوك الرومانيين لم يوقف سير المدنية الا قليلاً . بل لقد كانت شرور ذلك العصر سبباً في افاقات اقتضاها انفجار القوى المضغوطة رغم ما توحي به طبيعة الحياة

والتاريخ لدينا حافل يشهد بما تقدم . ولنأخذ مارتين لوثر مثلاً . ومارتين لوثر من الرجال الذين هزوا الانسانية وقسموا المسيحية الى قسميها الكاثوليكية والبروتستانية . قام هذا البطل وسط العقائد والوحدات الايمانية السائدة في القرن الخامس عشر لميلاد المسيح . وكانت سيادة هذه العقائد من القوة بحيث لم يكن لمن يقاومها الا ملاقاة حتفه . فكم من

ارواح أزهقت لا تحوي الا انها سمحت لابسط انواع الاعتقاد ان يوجه صادراً منها الى بعض شعب غير رئيسية قد تفرّع عن هذه المعتقدات · وبقاء هس وجيروم باقٍ ناطق بما كان يلقاه المعترضون من انواع التعذيب الذي ينتهي بموتهم حرقاً. ولكن عصر لوثر لم يكن عصر هس وجيروم · فقد كانت النفوس في عصره مهيَّأة لقبول تعاليم جديدة شعرت بها لازمة لحياة الجماعة. فما كاد ينشر تعاليمه حتى رحَّب به الانصار والاشياع · فلما استدعي الى مجمع ورمس ليناقش الحساب بعد ثلاث سنين من قيامه بنشر دعوته علت حوله الصيحات من كل جانب: «كن عند ربك فانه معك» · وكذلك كان يحمل بدافع صاعدين عن آرائه في خطبة القاها كانت ما تضمنته نحو صيحة الجنس نحو الكمال · ولقيت خطبتهُ من امر ذلك العصر استمداداً فآزرها الناس وكانت فاتحة عصر جديد · ولكنها في الواقع لم تكن الا خطوة ضيقة اعدَّ الماضي لها النفوس فلما خطوها في عصر لوثر جاءت على اثرها خطوات تأسست عليها مدنية اوربا في العصر الحاضر

ومارتن لوثر ليس الا المثل المذكور من امثلة المصلحين الذين قاموا في الانسانية من يوم نشأتها الى العصر الحاضر · ولكن الاكثرين من هؤلاء الابطال المصلحين ان لم نقل كلهم اقرب الى الشعراء منهم الى المفكرين · لان من شأن المفكر ان تخمد القوة العملية فيه بمقدار ذكاء قوته الفكرية · فالفكرة التي تكون في نفسه بدل ان تدفعهُ للعمل لاظهارها تحمله الى فكرة اخرى والى فكرة ثالثة وهلمَّ جرًّا · وعلى ذلك تنقضي حياة المفكر في ملاحظات واستنتاجات وتشكيك في الملاحظات والاستنتاجات وردود على هذا التشكيك وموازرة للفكرة بافكار اخرى · ولكن الابطال المصلحين يقفون عند افكار معينة تسمو على افكار الشعب الذي يقومون بينهُ سموًّا محدوداً في اتجاهه وفي مقداره لاضطرار المصلح ان يلائم الوسط الذي يظهر فيه ملاءمة تسمح لسواد هذا الوسط ان يتبعهُ على طريق القياس ببعض ما عندهُ من الوحدات الايمانية التي افلتت من القيود القديمة وسمحت لها مقتضيات الاجتماع او اكرهتها ظروفهُ على التقدم بعض الشيء · لكن المفكر لا يقف عند فكرة معينة · بل هو يتطلب دائماً نتائج هذه الفكرة ونتائج هذه النتائج وآثارها وارتباط النتائج والآثار بحياة الوجود العام وغير ذلك مما لا ينتهي ومما هو مثار الشكوك الدائمة · وكذلك تنقضي حياة المفكر في وسط خيالي لا يتبعهُ الناس ويتذوقهُ هو · ومحال ان يكون غير ذلك ما دام الفكر الانساني محدوداً والعالم غير محدود

وضع المفكر العظيم اوجست كونت فلسفتهُ الوضعية وقضى في ترتيبها زهرة حياته · ولما

اكتهل صادفته مدام دفو فوصل من الاعجاب بها الى حد تقديسها وهنالك داخلت نفسه نزعة شعرية فانتقل من فلسفته الى سياسته التقريرية آخذاً النتائج التي وصل اليها من طريق الملاحظة والاستقراء ملبساً اياها نفسه ثم ناثاً لها في صيغة شعرية اشبه الاشياء بالعقيدة التي تأخذها كتب العقائد . هنالك حكم عليه انصاره اتفسهم بانهُ قضى كمفكر لان النتائج العظيمة التي وصل اليها في فلسفته ليست خاتمة ما يمكن ان يصل اليه الملاحظ والمستقرئ . ولذلك وقفوا في مناصرته عند الذي وصل اليه من فلسفته واستمروا في الطريق الذي كان هو سائراً فيه . استمروا يفكرون

وهذا النوع من الحياة واقصد اذكاء الفكرة وجعلها تدفع الى فكرة اخرى لا الى عمل من اعمال الحياة يفقد هذه الاعمال قيمتها في النفس . وذلك هو السبب في ضعف احساس المفكر بالمسؤولية . فهو يترك الحياة المادية تسير كما تسير منقطعاً الى حياته العليا فتصبح الاعمال عنده موضع ملاحظة ونظر كأنها شيء آخر مستقل عنهُ فلا تستدعي منهُ اسفاً ولا غبطة . ولكن الذي يستوقفهُ ويستدعي اعجابهُ او انقباضهُ هو الفكرة الجليلة او الفكرة المجرمة

يتضح مما تقدم ان اصحاب الشذوذ الفكري والمجانين العظماء والمفكرين هم شواذ في الجمعية ولكنهم اثر من اثارها هم الخلق الذي تصل عنده وحداتها الايمانية المضاربة في اغلب الاحيان تضارباً ان اتفق مع الحياة فهو لا يتفق مع التقدم . والتقدم والارتقاء هما اثر التطور الذي هو احد القوانين الرئيسية لنظام الجمعية وخلودها . وعلى اعتبار هؤلاء الاشخاص شواذ لازمين قطعاً لوجود الجمعية الانسانية من حيث هي الجمعية الانسانية في صورتها غير المحدودة بالمكان والزمان والقائمة بين الازل والابد — على هذا الاعتبار سمح لهم الرأي السائد في كل العصور ان ينتهكوا حرمتهُ ويحولوا تيارهُ لان الرأي السائد يحتوي جرثومة التطور والتقدم . وهذا هو ما جعل فكرة المسؤولية تنطبع في نفوس هؤلاء الافراد على نحو مبهم اقرب لان يكون طابع المستقبل منهُ طابع الجمعية الحاضرة

وهؤلاء الافراد هم الذين اوتوا اجهزة وتيارات غير عادية وسمحت لهم ظروف خاص كالصدفة والوراثة ان يوجهوها لخير الانسانية فوفقت احسن التوفيق وكانت نزعاتهم الفردية حجر الاساس الذي شيدت فوقهُ المدنيات المتعاقبة

ولكنا اذا حولنا النظر الى الجهة المقابلة حيث ترفع النزعات الفردية اعلام الموت وترسل نذر الخراب واخذنا نيرون الظالم مثلاً رأينا الفرد المجرد من معنى الاجتماع والعائش بنفسه لنفسه . ورأينا المخرب الذي يدفع ليدك قواعد الوجود ارضاء لشهوته . رأينا هذا المستبد

الاحمق محرقاً رومية ممسكاً بيديهِ قيثارتهُ يوقع عليها قصيدة خرقاء جادت بها قريحتهُ المجرمة . ولكن رومية عادت الى الحياة ومات هو وغص عن قصيدتهِ في حفرتهِ

ولذلك يعلو الاجتماع ويبقى ويموت الفرد الخارج على قوانينهِ تحت اقدامهِ

نيرون هو المثل للمجرم في الانسانية . والمجرم شخص مجرد من العواطف والاحساسات البشرية لا يحس بالألم ولا بالسعادة ويرى الوجود الذي امامهُ عدواً لهُ لدوداً . هو حيوان من غير النوع الانساني لانهُ غير مدني ولكنهُ البس صورة الناس ظاهراً . لهذا لم يكن لقواعد الحياة ووحدات ايمان الوجود ان تنطبع في نفسهِ الصلدة بل يبقى فؤادهُ جامداً ونفسهُ حيوانية لا تعرف من معنى الاجتماع شيئاً ولا تفهم من قوانين الطبيعة الا القانون العام الذي يحكم الموجودات الحية الى ادنا انواعها قانون استبقاء الحياة . ولما كان الكد والكدح الرزين من آثار التنافس الذي لا يكون الا بالاجتماع وكان المجرم غير مدني رأيتهُ يميل الى الكسل ويفضل الاغارة على امثالهِ بني آدم يختطف اموالهم من يدهم كما يغير الاسد أو النمر على ما يجاورهُ ويأخذ الفريسة التي تلوح لهُ

وجمود نفس المجرم عن تلقي آي الاجتماع ينتج عندهُ حتماً جموداً امام الجزاء المقابل الذي تفرضهُ هاته الآي عقوبة لمن خرج عليها . لهذا لوحظ ان المجرمين المتأصلة جرثومة الاجرام في نفوسهم لا يعرفون معنى التوبة ولا يفقهون معنى التكفير عن الخطيئة . كما انهم لا يشعرون في العقوبة بالم يردعهم عن العودة لما يسترجعها بل هم يرتكبون الجريمة بالهوادة والطمأنينة التي يجدها غيرهم في اي عمل عادي مشروع لان الجريمة عمل عادي مشروع عندهم

لكن هذا النوع من المجرمين قليل وغير منتشر . والغالبية العظمى ممن يخرجون على النظام اشخاص تدفعهم ظروف خاصة توجه نزعاتهم الفردية وجهات غير موفقة فيرتكبون ما يخالف التعاليم التي انطبعت في نفوسهم والتي هي وحدات الوجود الايمانية . ومن هؤلاء تتركب طائفة المسؤولين الكبرى . فالمجرمون بالصدفة والمجرمون بالعادة والمجرمون بدافع الشهوة والمجرمون المتهوسون والمجرمون السياسيون وغير هؤلاء واولئك ممن سيرجع بنا الكلام اليهم عند بحث المسؤولية القانونية

ووجود هذا النوع من المسؤولين في الجمعية هو المقابل الطبيعي لوجود العظماء والمفكرين والمصلحين . فما دام الاجتماع الانساني في تطورهِ نحو الكمال بتقدم النزعات الفردية لاتمام ذلك التطور فتوفق بعض هذه النزعات للسير في الطريق السوي وتضل

اخرى وتحصر في مهاوي الجريمة · ولكن اصحاب النزعات الضالة يلقون دائماً جزاء ضلالهم فتدوسهم الجمعية باقدامها وتمر من فوقهم غير مهتمة بهم ولا مكترثة لهم بل مستخدمة اياهم في احايين كثيرة لمساعدتها في التقدم الى الغرض الذي تسير اليهِ · ولم يستطع هؤلاء الضالون في عصر من العصور الماضية كلا ولن يستطيعوا في المستقبل ان يقفوا في وجه الجمعية لان الجمعية وجود طبيعي ازلي خالد · والافراد ذرات سريعة التحول والانقلاب · والجمعية كل والفرد ذرة متناهية في الصغر الى جانب ذلك الكل ومسخرة لخدمته

اذن فشأن الفرد في الجمعية شأن مسمار في ماكينة عظيمة · فذلك المسمار يبقى سالماً ما دام قائماً باداء الوظيفة التي وضع لها غير خارج على المجاورات التي حولهُ · لكنهُ يلقى جزاءه محتوماً ان هو وقف عن اداء وظيفتهِ او خرج عن المكان المعد لهُ · فانهُ يلقى قسماً آخر من الماكينة أمتن منهُ واقوى يصادفهُ في سيرهِ فيكسر رأسهُ او يردهُ رغماً عنهُ الى مكانهِ · بل ان شأن الفرد لاضعف من ذلك واحقر · لانا مهما تصورنا من عظمة هاتهِ الماكينة ومن ضآلة المسمار الى جانبها فلن نبلغ في ذلك ما يقابل الجمعية والفرد

وقد احسَّ الناس من ابعد الازمان بهذا الاحساس وفهموا تمام الفهم معنى الجزاء الذي تنزلهُ بهم الجمعية حين خروجهم عليها · وبلغ من قوة احساسهم بهِ أن خلطوا بين فكرة الجزاء وفكرة المسؤولية واحلوا الاولى محل الثانية · وترتب على هذا الخلط الفكري خلط آخر جرَّ اليهِ التشابه اللغوي · فإذ كانوا يرون الجزاء هو المقابل الطبيعي لعمل من الاعمال يعرض صاحبهُ لسخط الجمعية وكان الجزاء لغة هو المقابل للعمل بالاوامر سواء كان هذا اجتماعياً او غير اجتماعي وسواء كان مضراً بالجمعية و يستدعي مسؤولية فاعلهِ اوهو لا علاقة لهُ بالجمعية مطلقاً وانما هو عمل يستحق المدح من فرد معين من الناس على خدمتهِ وصلتهِ من آخر — جعلوا هذه الاعمال غير الاجتماعية لما يقابلها في نظرهم من الجزاء داعية مسؤولية ولو في جانب ما يسمونهُ الخير · مع ان المسؤولية انما تكون عند الفرد على اثر انطباع وحدات الايمان المتعلقة بحياة الاجتماع في نفسهِ ومخالفة هذه الوحدات من بعض الاشخاص

ولكن اذا كان هذا الخلط قد جر اليهِ الشبه اللغوي في استعمال كلمة الجزاء فان الذي مكن لهُ في عالم الفكر ومدَّ من حياتهِ حتى نراهُ باقياً الى اليوم هو الابهام الذي كان حاصلاً في فهم الوحدات والقوانين اللازمة لحياة الاجتماع حتى رتبت بعض العصور اضعف اعمال الفرد في جهتي النافع والضار والخير والشر ترتيباً لا يسمح لنزعة فردية من النزعات التي هي اساس التطور الاجتماعي ان تقوى وتعمل عملها في الوجود · رتبها وحكمتها فكان الميدان

مسموح للفرد ان يتنفس فيه ضيقاً او حسناً كاد يختنق . فكان طعامه وشرابه وحركاته ونوع كلامه بل افكاره وكره كلها معتبرة من الوحدات الاجتماعية اللازمة لحياة الجمعية . ولكن التطور الذي حصل على متعاقب العصور حل بعض الشيء من هذه الدائرة وسمح للافراد بدائرة اوسع يتحركون فيها حسب ما توحي اليهم به نزعاتهم وظروفهم الخاصة وان حكمتهم دائماً ظروف الوسط والزمان

وهذه الحرية التي سمح بها الاجتماع لافراده على اعتبار انها لازمة للتطور وغير ضارة بحياته هي التي سمحت لفكرة المسؤولية ان ترجع بعض الشيء الى معناها الطبيعي الاول . ونعني احساس الفرد بمخالفة سنة الاجتماع مخالفة يغلب ان تجر عليه الجزاء المقابل لها . لكن فكرة الجزاء هي المقابل لفكرة المسؤولية وليست هي هي كما قرر بعض الكتاب والفلاسفة . فقد يأمن الرجل كل الامن وقوع الجزاء ولكن ذلك لا يمنع تحرك ضميره حسب ما تكون من قبل ما لم يكن مجرماً بالخلق ميت الاحساس بطبيعته . وان كثيرين من الاشخاص الذين يقدمون للقضاء فيبرؤن لعدم قيام ادلة كافية لادانتهم يبقون رغم فرحهم بالنجاة من العقاب تحت تأثير وخز الضمير زمناً غير قليل . بل قد يبلغ الحال من بعضهم ان يجزي بنفسه نفسهُ . ولولا نعمة النسيان تسمح للاكثرين منهم بشيء من الهدوء لما برحهم ألمهم . كما ان فكرة التكفير والتوبة تريح نفوساً كثيرة قد تنوء لولاها بفكرة المسؤولية

بل كم رأينا من كبراء الرجال من ارتكب على علم انهُ امر يجمعيته ولكن ظروفاً خاصة جعلتهُ يرتكبهُ وهو مطمئن ساعة ارتكابه لكن الماضي لم يلبث ان تكدس كلهُ وغلب الحاضر وقامت فكرة المسؤولية قاسية الحجة تعذب ضمير هذا الرجل اشد العذاب

واما ادخال عمل الخير تحت فكرة المسؤولية فذلك خطأ جرّ اليه الخلط اللغوي وجرّ اليه تاريخ فكرة المسؤولية ووجد اركانهُ ميل العقل الانساني الى فكرة المقارنة والمقابلة بين الاضداد . والحقيقة ان فكرة الخير والاحسان والفضيلة هي افكار نسبية ابدعت في مختلف العصور لتعبير عن النزعات الفردية التي تسمو بالجنس في طريق تقدمه نحو الكمال . ولا يمكن ان تستثير الاعمال التي اطلقت عليها هذه الاسماء فكرة المسؤولية في النفس . ولكن التعاليم القديمة كانت تجعلها تستثير فكرة الجزاء عند الله ان لم يكن عند الناس فكان ذلك سبباً للخطأ الذي اشرنا اليه

محمد حسين هيكل المحامي

دكتور في الحقوق